قصة الخلق الأول
بين الأسطورة والعلم والدين

د. التهامي محمد الوكيلي

تمهيد

في بداية البدايات كان الخلق الأول. وقبل تلك البداية الأولى، كان الله وحده ولا شريك معه على الإطلاق. كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن معه "شيء" ولم يكن معه " لا شيء" أيضا، بمعنى أنه عز وجل كان ولم يكن معه وجود ولا عدم، إذ لو كان العدم ذاته موجودا (وهو المعبر عنه باللاشيء) لكان قديما مع الله سبحانه وتعالى عن ذلك مطلق العلو، وذلك محال ومستحيل مطلق الاستحالة.

ثم خلق الله سبحانه وتعالى العدم قبل الوجود، وهذا تسلسل منطقي: أن يحدث الفراغ أولا، ثم يتبعه الامتلاء بالأعداد والأشياء والأشكال والألوان...ومن ثم فقد كان الموت أو الفناء مجرد عودة إلى الحالة الأولى من العدمية، فسبحان الله تعالى، الذي له القبل والبعد وحده لا شريك له.

ها قد تبين عقليا ومنطقيا بأن الحق عز وجل كان وحده بلا وجود ولا عدم معه، وبأن العدم كان أول المخلوقات حتى انبثق

الوجود بعد ذلك من ثنائية المظلمة والسحيقة، فكيف تمثل الإنسان لحظات الخلق الأول تلك، وكيف صور مشاهدها المهولة بناء على مخيلته الخصبة أو على قناعاته وملاحظاته العلمية أو على عقدياته المتعددة والمختلفة؟

الأسطورة

تتربع الخرافة الإسرائيلية بلا جدال على عرش الأساطير الإنسانية كافة، بما فيها الخرافات المتعلقة ببداية الخلق الأول، وحتى يضمن بنو إسرائيل لخرافاتهم حدا أقصى من الانتشار ومن الأتباع والمصدقين فقد عمد كهنة معابدهم على إدخالهم ضمن النصوص المنحولة على التوراة، بعد تعريض هذا الكتاب المنزل للتحريف والتغيير والتزوير حتى صارت له عدة نسخ مختلفة تنال كل منها حظها من التصديق والتعميد، وهذا أمر لا ينكره بنو إسرائيل أنفسهم، أو بالأحرى، فإنهم لا يسعهم إنكاره، حيث يعترفون بأن الكتاب المنزل على موسى عليه السلام اختفى ولم يعد له أثر منذ كان محفوظا داخل التابوت، ويزيدون على ذلك بمنح صفة الأصالة لنسخ متعددة منه كتبها نفر من أحبارهم وفلاسفتهم لا تتفق في رواياتها وفي بعض ما تقدمه من أحداث ووقائع، وحتى النسخة التي قيل إنها اكتشفت مؤخرا في إحدى المغارات المطلة على النيل، والتي ورد أنها مكتوبة بالعبرية الأصلية، فإنها سرعان ما تعرضت للنقد والتشكيك لما حوته من معلومات تتناقض والتعاليم الواردة في نصوص أخرى مقدسة لا يشك نفس الدهاقنة في صحتها.

تقول الأسطورة التوراتية المزورة إذن: إن أول ما كان موجودا هو الله (سبحانه وتعالى) ومعه هوة سوداء سحيقة لا حدود لها يمكن أن يطالها العقل، وقد فسر علماء الفيزياء والذرة في العصر الراهن تلك الهوة المظلمة بكونها ثقبا أسود عظيما لا ينفلت من جاذبيته الماحقة أي شيء على الإطلاق[1].

ومن الطبيعي أن يكون هذا القول باطلا، لأنه لا يجوز أن يقبل العقل أن يكون مع الله قبل بداية الخلق الأول أي "شيء" ولا أي "لا شيء" كما سبقت الإشارة، وبالتالي، فإن الثقب الأسود

1. بحثا في أسرار التوراة، للعالم الفيزيائي الأمريكي الحائز على نوبل في الفيزياء "إيروين جينسبورغ

A la recherche des screts de la bible, (Erwin Ginsbourg).

العظيم أو الهوة السحيقة المظلمة لا يسعها أن توجد قبل الخلق الأول، وإلا لكانت متصفة مع الله عز وجل بالقدم وهذا محال.

وتزيد التوراة في وصفها للخلق في بداياته الأولى (انظر نفس المصدر المبني في الهامش) مقسمة أيام الخلق إلى ستة أيام يتلوها يوم تنص على أنه يوم عطلة "يستريح الرب فيه من عناء العمل" سبحانه وتعالى عن هذا.

وهكذا يكون اليوم الأول مفردا لخلق النور، إذ يقول الحق عز وجل للنور كن فيكون كما تقول التوراة. ثم يأتي السديم الكوني مجتمعا في اليوم الثاني وهو عبارة عن ماء فحسب، ويصفه علماء الفيزياء الحداثيون بالماء الذري أو بالفلويد الكلي، ثم ينقسم هذا السديم الكلي في اليوم الثالث ويجعل الخالق عز وجل بين قسميه امتدادا محايدا حتى لا يطغى أحدهما على الآخر وحتى لا يلتقيان. فكأنما أحدهما موجب والثاني سالب ولذلك يتجاذبان نحو بعضهما فكان لزاما أن يحل بينهما برزخ هائل حتى لا يتلاقيان من جديد. وفي اليوم الرابع تظهر الطبيعة بعد أن يخلق النظام الشمسي الذي نعيش فيه، وبعد أن يستوي ليله ونهاره وتبدأ فصوله في الظهور والانتظام، ثم تخضر الأرض وتنبث وتصير للحياة، ثم في اليوم الخامس تخلق الحياة الحيوانية بدءا بالبحرية والمائية على العموم، ثم الجوية، ثم البرية المتعددة والمختلفة، ثم في اليوم السادس يجيء خلق الإنسان ليتوج هذا العمل الخلاق الجبار. ويقابل الجمعة ذلك يوم الاستراحة والعطلة الربانية، سبحان الله وتعالى عن أن تأخذه سنة أو نوم أو يطاله نصب أو كلل وهو القوي العزيز.

وتتعدد روايات خلق الإنسان لدى مفسري التوراة، فمن قائل أنه (الإنسان) ظهر قبل 6000 سنة فحسب، وهذا يناسب التوقيت التوراتي الذي يكون قد بلغ الآن إلى نهاية الألفية السادسة، ومن قائل إن الأيام عند الرب بالآف السنين مما نعد نحن، وبالتالي فإن مرد الخلق البشري الأول يكون إلى ملايين السنين، ومن مبدع بأن الإنسان كان يعيش فوق كوكب آخر من الكواكب السيارة أو غيرها، وبأنه طرد من مقره ذلك بعد سقطته التي يراها الإسرائيليون ترديا إلى عالم الفعل الجنسي، قبل أن يستقر فوق هذه الأرض، حيث وجد بشرا متوحشين فصاهرهم وأنجب منهم أبناء وأحفادا ولذلك كان سنه في البداية يتجاوز مئات السنين، ثم مع تواتر الإنجاب وتتابع الأجيال تقلص عمره بالتدريج حتى وصل على ما هو عليه اليوم.

هكذا تقول الأساطير المختلفة أو تكاد، مع اختلافات بسيطة في بعض المراحل وفي بعض التفاسير.

ومن المؤسف له حقا، أن معظم تفاسير المفسرين وتنظيرات المنظرين المسلمين أخذت الكثير، حتى لا نقول إنها أخذت الكل، مما جاءت به الإسرائيليات المنوه عنها، ولذلك لم تضم في مجملها أي فرق بين البشر والإنسان أو بين الخلقة الطينية الأولى للإنسان، ومراحل تسويته وتقويمه والنفخ فيه من روح الله، أي مده بملكة العقل وموهبة حب الخير والجمال، بل إن تلك التفاسير لم تقف جيدا عند الآيات المبينة للخلق الأول كيف بدأ، بل أعادت كتابتها خلال التوضيح فحسب، فكأنها في ذلك إنما، والأدهى من هذا أنها لم تجد الشجاعة لاستقراء ما وصل إليه العلم الحديث، وهذا من علم الله العليم الخبير على أي حال من الأحوال، لتعيد لكل آية من تلك الآيات قراءتها بما تستحقه من الفحص والتمحيص والتحليل والفهم، وهذا بالذات ما جعل العلماء العلمانيين، حتى المسلمين منهم، ينادون بعلمنة الدين وعصرنته لاعتقاد منهم ـ خاطئ بكل تأكيد ـ بأنه بات يعوق التقدم العلمي، وبأنه (الدين) لا يعدو أن يكون مشروعا لائقا لعصره ولأناسه الذين نزل فيهم، فكأن علماءنا التجريبيين ينكرون بذلك أزلية الإسلام وكونيته ويستتركون عليه صلاحيته لكل الأزمنة والأمكنة وللناس كافة.

المقولة العلمية

قبل التطرق إلى ما يقوله العلمانيون في أصل الخلق، يجمل بنا أن نقف قليلا عند تعريف مصطلح "علم"، حتى نعرف على الأقل عن ماذا نحن متكلمون.

إن الله سبحانه وتعالى، وهو العليم الحكيم الخبير مطلق العلم والحكمة والخبرة، يجعل للعلم أوصافا يسعنا أن نقف على أربعة منها نراها كافية لجعلنا على بينة من العلم كما يراه الحق سبحانه، ولعمري فإن العلم لن يكون أبدا أفضل ولا أمثل مما هو على تلك الأوصاف الأربعة[1]:

الوصف الأول: تعبر عنه الآيات البينات:

1. المدارس الباطنية بين العلم والعقيدة والدين" رسالة لنيل دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية، د. محمد عزيز الوكيلي، الرباط 1998.

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ [البقرة: 30- 31- 32].

وهذا الوصف يجعل "العلم الحق" شامل جامع لجميع المعلومات والأخبار عن كل الموجودات، أي شامل لما يمكن أن ندخله في خانة "غيب السماوات والأرض"، لأن آدم عليه السلام أخبر بالأسماء التي علمه الحق عز وجل إياها فإذا هي من الإلمام والجمع والتعدد والتنوع ما جعل التعليق على العلم المكتسب لدى آدم يستدعي ذكر المعارف والعلوم المتعلقة بالسماوات والأرض بجميعهن، ثم إن لفظ الكلية (الأسماء كلها) لا يمكن أن يعني سوى كل المعلومات المتصلة بالأسماء، ولابد أن هذه الأسماء لكل المسميات، وليس كما يقول بعض المفسرين، وكما جاء أيضا على لسان الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه "أبي آدم"، حتى وهو يساير الفهم الحديث المتحلي بلباس العلم والحداثة، من أن "الأسماء كلها" لم تكن إلا أسماء الملائكة، نحن نعلم بأن الملائكة أعداد وأصناف لا حصر لها إلا في علم الله عز وجل، وبأنهم ذوو اختصاصات ووظائف لا تحصى هي الأخرى ولا تعد، وبأن هذه الوظائف لها صلة بكل الموجودات الأرضية والسماوية وبأنها أيضا لها صلة بكل جوانب الحياة والممات لتلك الموجودات، ومن ثم فإن الملائكة على علم بهذه الموجودات والكائنات بتحصيل الحاصل. ولذلك فإن تحقيق سبق آدم عليه السلام بعلم أوسع وأشمل وأكثر عمقا وشساعة، وهذا ما عبر عنه كتاب الله عز وجل بالكلية (الأسماء كلها) ولو كان الأمر يتعلق فحسب، بأسماء الملائكة عظامهم وجنودهم على السواء، لأن من الطبيعي، أو المحتمل على الأقل، أن يكون هؤلاء عارفين لأسماء بعضهم أو يكون ذلك على الأرجح في علم كبارهم المقربين من عرش الرحمن عز وجل.

إن العلم إذن، حتى يكون علما حقا، يشمل الفروع العلمية كلها ويجمع بعض غيب السماوات والأرض، أو ما يعتبر في الوقت والزمن اللذين يكون العلم فيهما موضوع تقييم من باب الغيبات الأرضية والسماوية.

الوصف الثاني:

تعبر عنه الآية الكريمة: ﴿**اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ [العلق: 3- 4- 5]، وهذا الوصف يجعل العلم منزلا من عند الله العليم الخبير، وهو التنزيل الذي يتم بواسطة الوحي والإلهام والإملاء على يد الأنبياء والرسل والصديقين وأيضا بواسطة وسائل العلم التي تختلف وتتعدد وتتطور على مر العصور وأساليب البحث والفهم المتجدد ما بقي الدهر، والتي ينبغي أن تكون محتكمة إلى الدين حتى لا تشتط (كما يقع الآن وكما وقع في أزمنة مختلفة في طليعتها زمن الطوفان) عن الجادة فيحق في أصحابها القول فيدمروا تدميرا فتصبح حضارتهم على عروشها خاوية.

وقد نص كتاب الله عز وجل على أن الله يبعث الأنبياء والرسل فيعلمون الناس الكتاب (بمعنى القوانين الفاصلة بين الحق والباطل) والحكمة (بمعنى العقليات ومعاني الحب والخير والجمال...) وما لم يكونوا يعلمونه (بمعنى أسباب التعامل والتعايش وتدبير شؤون العيش والمحيا والممات...).

إذن، فالعلم الحق، ينبغي أن يكون من عند العليم الخبير، أي غير مناقض ولا معارض ولا مجاف لما جاء من عند الله عز وجل على أيدي أنبيائه ورسله، وهذا ما يعبر عنه بالجملة القوية "إن الدين مهيمن على العلم كله".

الوصف الثالث:

تعبر عنه الآية البينة: ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**﴾ وهذا الوصف يجعل العلم قادرا على تأويل آيات الله على أرض الوجود الموضوعي بعد أن كانت في حكم الغيب قبل أن يبلغ الإنسان إلى المدارج العلمية القمينة بتأويلها.

وهذا معناه أن العلم لا يفعل سوى أنه يزيد في تقوية اطمئنان المومن إلى إيمانه إذ يفسح له المجال ليرى تأويل أي تحقق آيات الله على بساط التجربة العلمية الملموسة، ولذلك فالعلم الذي يعتقد أهله بأنه يأتي بما يعارض النص الديني أو يجعله متجاوزا وفي حاجة إلا "علمنة" أو عصرنة" لا يعتبر علما البتة مهما حقق للإنسان الممسك بناصيته من التقدم المادي الوجودي ومن البذخ والسبق الدنيويين.

إن الراسخ في العلم إذن، مطالب بالوجوب بالخضوع لله الواحد بعد أن يقف على تأويل آياته وتحققها على أرض الوجود الموضوعي والتجربة الملموسة والمعللة بحجج العلم وأدلته، وكل عالم راسخ في العلم بمقاييسنا، ونريد هنا أهل الشهادات العليا والجوائز العالمية، كنوبل وغيرها، إذا لم يعترف بكونه إنما يؤول آيات الله فإنه يفقد صفة العلمية مهما أسبغها عليه الخلق ومهما تلبس بها من تلقاء نفسها.

الوصف الرابع

تعبر عنه الآية الكريمة: "إنما يخشى الله من عباده العلماء" والتي تقتضي أن يكون العلم - حتى يكون علما حقا - مورثا للخشية من بأس الخالق عز وجل، ذلك أن أقصى درجات العلم إنما هي معرفة الحق سبحانه، ومتى تمت هذه الغاية فإن الخشية من بأسه لابد أن تحل في قلب العالم، وأفضل منها الخشية من أبعد عنه سبحانه وتعالى مالك الملك القوي العزيز.

وكل عالم لا يخشى الله في سره وعلنه وفي نفسه وفي عباده وخلقه فإن وصفه بالعلم يصير ما يريد أن يسبغه هذا المتلبس بلباس العلم على نفسه أو يسبغه الناس عليه من رداء العلمية والعلمانية.

هكذا إذن، يتبين لنا من خلال هذه الزوايا الأربع أن العلم ينبغي، لكي يكون علما حقا، أن يكون وجها من وجهي عملة واحدة هي "العبادة" بحيث يكون "العمل" بذلك "العلم" وجهها الآخر، ما دامت العبادة هي الغاية التي من أجلها خلق الحق عز وجل الثقلين (الجن والإنس) مصداقا لقوله تعالى "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، ومن ثم فإن العلم لا يكون أبدا مجافيا للدين ولا العكس، وإنما هما معا من نور الله يريد الله سبحانه وتعالى أن يهدي به عباده إلى الجنة وعلى الفوز الأكبر لمن يعلم ويعمل بما يعلمه.

بعد هذا، يسعنا أن نقرر بأن الأطروحات التي جاء بها العلماء العلمانيون تتناقض في معظم مقولاتها مع النص الديني، فبعضها قال بالاعتباطية، وبأن الكون جاء خلقه الأول بطريق الصدفة، ثم إن تعدد مكوناته وساكناته جاء هو الآخر بالصدفة، وكذلك أشكال التطور والتجدد السائرة في ركابه منذ البداية إلى النهاية، والتي لابد أن تأتي هي الأخرى

بشكل مفاجئ وبالصدفة، ولسنا في حاجة على الوقوف كثيرا عند هذه المقولة فقد تآكلت وتهاوت من تلقاء ذاتها وأكل الدهر عليها وشرب، ولم يعد أحد يشير إليها مع ما وصلت إليه أسباب البحث العلمي في الوقت الراهن.

وبعض الأطروحات العلمية العلمانية يقول إن الكون والطبيعة خلقا من تلقاء ذاتهما، وبالتالي، فإن الطبيعة هي المتمتعة بذكاء فطري ذاتي تلقائي وهي المسؤول الأول والأخير عن كل ما تحمله من التعدد والتنوع ومن أشكال الانتقاء والتطور. ومن القائلين بهذا القول يأتي داروين، صاحب نظرية النشوء والارتقاء، الذي عزا الخلقة الآدمية إلى تطور نوع معين من القردة العليا، والذي صار في الوقت الراهن مثيرا، فحسب، للهزء والسخرية. والحال أن نظرية داروين هذا كملت بذور خرابها في جوفها إذ كيف مثلا يكون الكلب جدا للخيول، فتأتي الخيول وتبقى الكلاب موجودة بأشكالها المتعددة والمتنوعة دون أن تنقرض تاركة المجال لبقاء حفدتها الجدد (الخيول) وكذلك الشأن بالنسبة للإنسان والقردة، وللأسماك والزواحف والأمفيبيات.

غير أن من آخر ما بلغ إليه العلم الحديث في التنظير لبدء الخلق، ينص على نظرية الانفجار الأكبر، يسير في اتجاه يقارب فكرة الخلق الأول التي جاءت بها التوراة، والتي سبق ذكرها في بداية هذا المقال، ثم عند التطرق لخلق الإنسان نجده يذكر هذا الخلق على مراحل، دون أن يعزي الجنس البشري إلى القردة، وإنما يجعله جنسا منفصلا ومتميزا، ولكنه متدرج خلال ملايين السنين عبر مراحل أربع رئيسية:

خلق أول وأساسي من الطين الأرضي، ودليله اشتمال كل من تراب الطيني والأدمة البشرية على نفس العناصر الأساسية والتي نجملها فيما يلي[1]:

يتكونان كلاهما من نفس العناصر الستة عشر وبنفس النسب:

1. الأوكسجين 63.03%
2. الكاربون 20.20%

---

1. "أبا يّدصق ،مىة ا لخيلقة بيذ ا لأسطورة وا لحقيقة" دللكتور عصدا دبوبر شاهين، ص:73 و ص:74

3. الهيدروجين 9.90%

4. النتروجين 2.50%

5. الكالسيوم 2.45%

6. الفوسفور 1.01%

7. الكلور 0.16%

8. الفلور 0.14%

9. الكبريت 0.14%

10. البوتاسيوم 0.11%

11. الصوديوم 0.10%

12. الماغنيزيوم 0.07%

13. الحديد 0.01%

14. اليود

15. السليكون } بنسب طفيفة لا تتجاوز في مجموعها 0.18%

16. المانغنيز

ملحوظة: ثمة قوائم أخرى أضافت: النحاس، والكوبالت، والتوتيا، والموليديوم، والألومنيون، والسيلينيوم، والكادميوم، والكروم، فصارت عدد العناصر 24 عنصرا في التكوين الإنساني والأرضي (الطين المستخلص من التربة الخصبة).

1. وهذه مرحلة بدائية أولى يشار إلى البشر فيها بتعبيرات علمية مختلفة منها الأوسترالوبيتيك (أو الأوسترالويوتيكوس) أو أي اسم علمي آخر يدل على بشر حيواني في كل أوصافه وتصرفاته.

وتمتد هذه المرحلة الأولى لنمو ثلاثة مليارات من السنين (من أربعة مليارات إلى مليار

واحد من الأعوام)، ويطلق بعض العلماء على إنسان لتلك الحقبة اسم "لبشر الجنوب" ويقال إنه أول من صنع الأدوات الحجرية وكان يستعمل إصبعه الإبهام في مقابلة الأصابع الأربعة الأخرى ليقبض على الأشياء، فتميز بذلك نوعا ما عن باقي الحيوانات[1].

2. مرحلة ثانية تبدأ من مليار سنة إلى 150 ألف سنة، ويقال للبشر الذي عمر فيها البيتكانيروب أو البشر القرد وكان منتصب القامة أكثر من سابقيه، وهو الذي اهتدى إلى النار[2].

3. مرحلة ثالثة تمتد من 150 ألف سنة إلى 40 ألف سنة، وهذه هي التي عاش فيها البشر الذي يطلق العلماء عليه اسم يالنيودرتال"، وهذا هو البشر المتميز بالشعور وبإطراء وتزايد الأفعال الإدارية الناتجة عن نوع أرقى من الفكر.

وفي نهاية عهد هذا "النيودرتال" جاء إنسان المرحلة الرابعة (الذي بدأ آدم والذي تعلم حده هذا الأسماء كلها كما ينص على ذلك كتاب الله العزيز).

4. مرحلة رابعة وأخيرة، تمتد من 40 ألف سنة إلى الآن، وهي مرحلة البشر "الهوموسابيانز" أو "الإنسان العارف" والذي اهتدى إلى الكتابة وطور اللغات وباقي وسائل التعبير[3].

وبناء على هذه النظرة العلمية لبداية الحلقة الإنسانية، فإن الإنسان الحالي يكون منفصلا تمام الانفصال عن الأشكال البشرية السابقة الذكر والمنتمية إلى المراحل الثلاث الأولى أعلاه، وقد جاء الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه المشار إليه في الهامش (أبي آدم) بما يفيد رأيا آخر لا يعارض تمام المعارضة الرأي العلمي المذكور، ولكنه يحوره ويجعله على مراحل يكمل بعضها بعضا، وهذا ما سنتطرق إليه ضمن موضوع الرؤية الدينية لبدء الخليقة.

---

1. نفس المصدر (أبي آدم) ص: 15.
2. نفس المصدر.
3. نفس المصدر (مأخوذ عن مؤلف للدكتور هيثم الخياط حول رؤيته في قصة الخليقة، وكان هذا الموضوع قد طرح من لدن المؤلف ضمن الدروس الحسنية الرمضانية التي تقام بالمغرب بحضرة العاهل المغربي (رمضان 1417هـ).

رأي الدين

كما فعلنا ونحن نناقش موضوع النظرة العلمية ضمن الفصل السابق، يجمل بنا أن نتفق مبدئيا على مفهوم موحد لمصطلح "الدين"، حتى لا يفكر كل منا في أمر مخالف ومغاير وهو يتمثل نفس الكلمة، وهذا ما تنم عنه فعلا كتابات كثيرة تتطرق إلى الدين والديانة والعقيدة والملة بمكيال واحد وكأنها ذات نفس المعنى وعلى نفس النمط من الفهم.

إن "الدين" كما ينص على ذلك كتاب الله عز وجل واحد لا يتعدد ولا يتجزأ ولا يتبعض، وقد استمد "الدين" هذا الوصف من "الديان" عز وجل، إذ لا يجوز في حق الله سبحانه وتعالى أن ينزل على عباده من الأنبياء والرسل دينا ناقصا يحتاج إلى تكميلات، أو دينا متعددا يتوزع الناس فيه طرائق وشيعا مختلفة.

وهذا أمر بديهي يعتقده كل مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله...ولكن لسان الحال يقول غير ذلك، إذ نجد من يتكلم عن "الأديان" وهذا لفظ باطل لأن الدين واحد، أو يتكلم عن "الديانات" وهو يعني بها رسالات الدين الواحد: الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن، أو يتحدث على العقيدة بصيغة تفيد الدين، بينما حقيقة الأمر أن الدين واحد أوحد وهو الإسلام في كماله وتمام نعمة الله المنعمة به "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا" مصداقا لقول الحق جل وعلا ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ وقوله سبحانه: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه**﴾ وقوله ولم يزل قائلا عليما: ﴿**يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾ [آل عمران: 63] وفي كتاب الله آيات كثر تدل على أن الإسلام هو دين كل الأنبياء والرسل بلا استثناء.

وهكذا، فعندما نتطرق إلى رأي الدين فإننا لا نستبعد ما يتفق مع المنطق ومع العقل مما جاء به أهل الكتاب، مع علمنا بأن معظم ما في الكتب المتقدمة بين يدي القرآن الكريم إنما

تعرض للتغيير والتحريف والتزوير، ولكن لم يزل فيه شيء مما لا ينبغي إنكاره لمجرد الإنكار.

يقول أهل التوراة والإنجيل إذن[1]، إن الله خلق الكون كله في ستة أيام واتخذ اليوم السابع للراحة (سبحانه وتعالى عن ذلك مطلق العلو)، ويقول القرآن الكريم ﴿**إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش**﴾ [الأعراف: 53]. فأيام الخلق الستة لا خلاف حولها، كما أن تتابع مراحل الخلق عبر هذه الأيام لا يثير أي نقاش يذكر، فالنور هو الأسبق إلى الخلق (بعد العدم أو الثقب الأسود الكلي) لأن النور- كما سبقت الإشارة - هو أسرع الموجودات وأقدرها على الانفلات من جاذبية العدم، ثم يأتي الصوت بعد ذلك، ثم تأتي المادة في أشكالها وحالاتها المعروفة وغير المعروفة.

ومن المنطقي أن يجيء خلق الإنسان في نهاية هذه المراحل، بدليل الله عز وجل لكل ما سبق خلقه لخدمته ولتشكيل مكونات الأمانة المنوطة به.

ومن الطبيعي أن يأتي خلق النظام الشمسي الذي نعيش في رحابه بعد خلق النور والصوت والمادة الكونية، وبعد خلق المجرات والأفلاك حتى يتسنى لنظامنا المذكور أن يدور بكل مكوناته في أفلاكه وهو مطمئن إلى البقاء بعيدا عن أي اصطدامات مدمرة، (وهذا لا ينفي تعرض الأرض لكوارث كونية مثل ما حدث في عهد الدناصير من ارتطام أحد المذنبات بالكرة الأرضية مما أدى إلى الدمار الكامل فوق قشرتها وغلى عودة دورة الحياة من جديد...).

وإذا كان العلم الحديث يتحدث عن وقوع "الانفجار الأكبر أو الأعظم" كبداية لخلق الكون، فإن كتاب الله عز وجل ذكر ما يشبه ذلك الانفجار أو يدل عليه، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿**أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يومنون**﴾ [الأنبياء: 30]، والرتق دلالة على وحدة الكتلة الكونية السديمية والفتق إشارة إلى انفصامها وانشطارها على ما يوجد عليه الكون حاليا من المكونات والأجزاء،

بل إن كتاب الله تكلم عن خلق البارئ عز وجل لليل والنهار والشمس والقمر مباشرة بعد الآية السابق ذكرها والآيات المكملة لها، بما يدل على أن المنظومة الشمسية التي نعيش فيها جاءت بعد استتباب خلق الأجرام الأخرى والأجزاء الأخرى للكون الأكبر. وهذا ضروري وواجب عقلا ومنطقا لأن انتظام الحركة في منظومتها يكون رهينا بانتظام الحركة في المكونات الأخرى المحيطة والمتاخمة فالأقرب منها قالا بعد...إلا ما يشاء الله.

ونأتي الآن على الخلقة الآدمية: إن الطرح الديني لهذه الخلقة يحتمل شكلين رئيسيين من السيناريوهات:

الأول، أن يكون الإنسان الحالي منفصلا تمام الانفصال عن البشر السابقين والذين ورد ذكرهم ضمن المراحل الثلاث الأولى والتي تمتد من أربعة مليارات إلى أربعين ألفا من السنين.

وهذا يعني أن آدم كان موضوع خلقة ترابية منفصلة، وأنه جاء منذ الوهلة الأولى كاملا وفي أحسن تقويم، ثم جاء نسله من بعده من الماء المهين ومن الأرحام.

غير أن هذا السيناريو يتطلب خلقات ترابية طينية كثيرة، كل واحد منها لكل مرحلة من المراحل البشرية الأخرى المذكورة، وهذا يكون جد البشر "الأوسترالوبيتيك" من طين، وكذلك جد البشر "البيتكانيروب"، ثم البشر النيودرتال، والحال أن كتاب الله على مر الحقب ومع تعدد الرسالات والنبوءات لم يتطرق إلا إلى خلقة ترابية واحدة ولم يخبرنا الأعز الخلقة الآدمية، وهي الخلقة التي عبر القرآن الكريم عنها تارة بالبشر المخلوق من طين، وتارة أخرى بآدم المخلوق من نفس المادة أو من تراب أو بأي صيغة أخرى من الصيغ الواردة في الكتاب والواصفة للمادة الطينية الأساس في تلك الخلقة.

وهنا يأتي السيناريو الثاني أكثر اقترابا مما يقبله العقل والمنطق. فما دمنا بإزاء خلقة طينية أو ترابية واحدة، وما دامت هذه تشير إلى البشر وفي الوقت ذاته إلى آدم، فما الذي

يمنع من أن يكون آدم نتاجا لنفس الطينية البشرية، وما الذي يحول عقليا ومنطقيا دون تدرج هذه الطينة عبر المراحل الأربع الوارد ذكرها أعلاه لتنتهي في آخر المطاف إلى حالة التسوية وإلى الخلقة المثلى التي استحقت النفخة الإلهية واستحقت التكليف وبالتالي تبوأ مرتبة الخلافة في الأرض؟

الواقع أن هذه مناسبة أريد أن أنتهزها للتثنية على معظم ما جاء به الدكتور عبد الصبور شاهين في هذا الشأن بالذات، حين أتى بتفسير حديث وأكثر تلاؤما مع الصيغة العلمية المطروحة حاليا للنقاش، وهذا لا يشرف الدين إذ يجعله، كما يرى بعض القاصرين، متمشيا مع البحث العلمي والنظرة العلمية الحديثة، بل يشرف العلم، وهذا عين الحقيقة التي أشرنا إليها في تطرقنا إلى تعريف العلم كأداة للعبادة ليس إلا، ويجعله متمشيا مع الحقيقة الدينية بخصوص أول الخلق وبداية ظهور الإنسان.

إن القول إذن: إن الله عز وجل خلق البشر من طين لازب أو تراب أو من حمإ مسنون، ثم إنه سبحانه وتعالى أخضع هذا البشر للتعديل والتسوية وفقا لسنة الله التي لا تبديل لها والتي يتم بها تطور واستواء باقي المخلوقات بلا استثناء، وهنا تصح نظرية النشوء والارتقاء لا كما جاء بها داروين بين الأنواع ومن نوع إلى آخر، وإنما داخل نفس النوع ونفس الفصيلة من الأحياء، حتى إذا صار هذا البشر بعد مراحل طويلة وضرورية، وفق المشيئة الربانية، قادرا على تلقي النفخة الإلهية من نور العقل ومن بذور الحكمة وحب الخير والعدل والجمال، انبثق منه بشر مخالف، بالغ التطور والرقي، هو "البشر المؤنس" الأليف لحمل أمانة الخلافة والقيام بواجب العبادة، التي من أجلها خلق الله سبحانه وتعالى الثقيلين (الجن والإنس) كما سبقت الإشارة، نقول: إن القول بهذا الطرح ليس انشقاقا عن الدين، ولا خروجا عما جاء به كتاب الله، الذي أخبرنا عن خلقه بشرية من طين، تعرضت للتسوية أولا، ثم للنفخة الربانية قبل أن تصير آدما يستحق أن تسجد له الملائكة ليس تعظيما لشأنه، وغنما إكبارا وإجلالا لما يمثله من عجائب الخلق الإلهي ومن غرائب صنع الله ذي العلم والخبرة المطلقين والقدرة

والإرادة اللانهائيتين.

يحضرني ها هنا قول القائل بتكفير صاحب كتاب "أبي آدم"، أو دعوة الداعي إلى تجريم هذا الباحث ووصمه بالابتداع، وأؤكد شخصيا بأن هذا الأمر إنما هو من قبيل الاجتهاد المحمود الذي قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن لصاحبه إذا أصاب أجرين وإذا أخطأ أجرا واحدا هو أجر الكد والتعب من أجل الفهم بإعمال العقل وأدوات البحث الممكنة والمتاحة، وهذا ما أمر الله به ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أن يريد بعضنا غيره جورا وعسفا.

ها نحن إذن مع طرح أقرب إلى العقل والمنطق: إن الله عز وجل لو كان قد خلق أشكالا من البشر فاتضح فيما بعد أنها غير لائقة لحمل الرسالة لكان ذلك تنقيصا من القدرة والعلم الإلهيين، سبحان الله وعالى عن ذلك علوا مطلقا. ولكنه سبحانه لو كان قد خلق من الطين بشرا بدائيا، ثم أخضعه تمشيا مع سنته في باقي خلقه مراحل نشوء وارتقاء وتطور إلى أن استوى واعتدل وصار آدميا مؤنسا قادرا على حمل أعباء المعرفة والتكليف متى نفخ فيه من روح الله عز وجل، فإن ذلك لا يكون إلا من باب كمال صنع الله سبحانه وتعالى، الذي يقول للخلق كن، فيكون كما أراد الله له أن يكون ولكن، وفق قانون يكون الله سبحانه وتعالى واضعه، ويكون هادفا منه إلى كينونة متحركة ومتطورة لأن سنة الله التي ليس لها أي تبديل تقتضي بأن يخضع كل ما سواه سبحانه للجدل على مستويين: مستوى داخلي يفضي إلى تحسين النوع وتطوير الذات لدى المخلوق، ومستوى خارجي يرمي إلى تطوير المحيط وتنمية العلاقات بين المخلوقات بما يحفظ التوازن الوجودي المطلوب، ولو أننا التفتنا إلى جميع الكائنات التي تشاركنا هذا الوجود لألفيناها، بلا أدنى استثناء، خاضعة لنفس الناموس، ولنفس الجدلية الهادفة إلى التطوير والتجديد والترقية عبر دورات حياتية دائمة الارتقاء، بل إننا لو تأملنا الوحي الإلهي أو التنزيل الإسلامي لوجدناهما وقد تنزلا على مراحل ومن خلال نبوءات ورسالات متعاقبة لا تعارض إحداها الأخرى ولكنها تتممها وتعدلها وترقى بها إلى ما يناسب رقي العقول والأفهام ويتمشى مع أسباب البحث والفهم، ومع العلم إن الله عز وجل حين يقول

للشيء كن فيكون فإنه سبحانه وتعالى يكون قد تمثله بصيغة الماضي في أكمل صوره وأرقى حالات خلقه، وذلك كما نعتقد عين الشر في عدم وقوف الكلم عند مراحل التطور والرقي مرحلة مرحلة، وإنما هو يلامس بالوصف والقول قمة المراحل دفعة واحدة مخترقا بذلك كل الأزمنة وكل الفضاءات، وربما بهذا بالذات ينبغي أن نفهم الخلقة الآدمية الإنسانية البشرية من تراب... والله سبحانه أعلم وإليه ندعو بالتواب والأجر عند الإصابة وبالعلم والعفو عند الخطأ إنه عفو حليم... والحمد لله رب العالمين.